Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences Volume (8), Issue (6) December (2025)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/95
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها جامعة الفارابي

الفتوحات الإسلامية في نظر المستشرقين واهل الذمة

م.م. عزيز رشيد مهدي
مديرية تربية بغداد / الكرخ الأولى

Islamic conquests in the eyes of the orientalists and the people of dhimmi

M.M. Aziz Rashid Mahdi

ملخص البحث

الفتوحات الاسلاميه هي مجموعة حروب عسكريه شنها المسلمين على الفرس و الامبراطوريه البيزنطية . بدأت الحروب من سنة١١هـ/ ٦٣٢م و إلى سنة ١١٣هـ/ ٧٣٢م، في عهد الخلفاء الراشدين و في عهد ألخلافه الأموية .نتائج الحروب كانت انتشار واسع للإسلام خارج شبه الجزيرة العربية , و انتشار اللغة العربية في بلاد و مناطق مثل مصر و الشام و شمال إفريقيا وسقوط الامبراطوريه الفارسية و ضياع أجزاء كبيره من الامبراطوريه البيزنطية و تحول جيوش المسلمين لقوه عسكريه عظمى, و بعد ذلك ظهور الحضارة الاسلاميه.وكانت للديانة المسيحية والديانة اليهودية والمستشرقين وجهة نظر حول تلك الفتوحات ولذا فان البحث يهدف إلى إبراز وجهات النظر تلك ودراستها وبيان أهميتها وتضمن البحث عدة محاور وقد قسم على ثلاث مباحث كان عنوان المبحث الأول :نظرة اليهود إلى الفتوحات الإسلامية وجاء المبحث الثاني بعنوان نظرة المسيحية إلى الفتوحات ،أما المبحث الثالث فقد كان عنوانه راي المستشرقين في انتشار الإسلام ثم المصادر والمراجع ومن ابرز ماتوصل اليه البحث هو:

- الإسلام دين الله الذي أرسل به الله تعالى محمداً – صلى الله عليه وسلم – رحمة للعالمين، وارتضى دينه من بين سائر الأديان ديناً.
- الإسلام سبق إلى رعاية حرية الإنسان في البقاء على دينه، وأن لا يكره على تركه، كما ضمن حرية العبادة وسلامة دورها.
- أهل الذمة والأمان والعهد مصطلحات أطلقها الفقهاء المسلمون على غير المسلمين المقيمين أو الوافدين إلى بلاد الإسلام، وتفيد أن هؤلاء في عهد المسلمين وذمتهم وحمايتهم.
- اعترف الإسلام بوجود الأديان تجانساً مع اعترافه بحتمية الخلاف وبقدرة الإنسان على التمييز والاختيار.
- الإكراه على الإسلام سوءة لم يصنعها المسلمون طوال تاريخهم بسبب قطعية النصوص المحرمة لذلك، وقد شهد لهذا المؤرخون الغربيون وغيرهم

Abstract

The Islamic conquests is a group of military wars waged by Muslims to the Persians and the Byzantine Empire. The war began a year11E, 632m and 113e/ to the year 732 AD, in the era of adults and in the Umayyad era gangs.The results of the wars were widely spread of Islam outside the Arab Peninsula, and the spread of the Arabic language in the countries and regions such as Egypt and the Levant and North Africa and the fall of the Persian Empire and the loss of large parts of the Byzantine Empire and the Muslim armies turned Guo finalizing skeleton, and after the emergence of the Islamic civilization.The Jewish religion of Christianity and the Orientalists View on those conquests, therefore, aimed to highlight the views of those studied and weighed the search included several axes and the section on three detectives tells us that the first title was: an overview of the Jews came to the Islamic conquests tells us that entitled a look at Christianity to the conquests, tells us that the third was entitled view orientalists in the spread of Islam and then references the most prominent findings research is:

•Islam is the religion of God ring which sent by God and Mohammed - peace be upon him - a mercy, embraced the religion among other religions as a religion.

•Islam already to care for human freedom to remain in the religion, and not be compelled to leave, and within the freedom of worship and the safety of its rol

•The Dhimmis, security and the Covenant terms by the scholars of the Muslim or non-Muslim residents arriving in the land of Islam, according to those in the era of Muslims and protection.
•Islam recognized the existence of religions and homogeneous with the recognition of the inevitability of disagreement in the ability of the human rights of discrimination and choice.
•Coercion to Islam types not made by Muslims throughout history because of the peremptory norm of the forbidden texts, and has witnessed this western historians and others.

المقدمة

الفتوحات الاسلاميه هي مجموعة حروب عسكريه شنها المسلمين على الفرس و الامبراطوريه البيزنطية . بدأت الحروب من سنة١١هـ/ ٦٣٢م و إلى سنة ١١٣هـ/ ٧٣٢م، في عهد الخلفاء الراشدين و في عهد ألخلافه الأموية. نتائج الحروب كانت انتشار واسع للإسلام خارج شبه الجزيرة العربية , و انتشار اللغة العربية في بلاد و مناطق مثل مصر و الشام و شمال إفريقيا و سقوط الامبراطوريه الفارسية و ضياع أجزاء كبيره من الامبراطوريه البيزنطية و تحول جيوش المسلمين لقوه عسكريه عظمى, و بعد ذلك ظهور الحضارة الاسلاميه. وكانت للديانة المسيحية والديانة اليهودية والمستشرقين وجهة نظر حول تلك الفتوحات ولذا فان البحث يهدف إلى إبراز وجهات النظر تلك ودراستها وبيان أهميتها وتضمن البحث عدة محاور وقد قسم على ثلاث مباحث كان عنوان المبحث الأول :نظرة اليهود إلى الفتوحات الإسلامية وجاء المبحث الثاني بعنوان نظرة المسيحية إلى الفتوحات ،أما المبحث الثالث فقد كان عنوانه رأي المستشرقين في انتشار الإسلام ثم المصادر والمراجع

المبحث الأول نظرة اليهود إلى الفتوحات الإسلامية

ان دراسة اليهود عبر التاريخ الإسلامي يمكن تلمسه من خلال اليهود انفسهم حيث يقول الفيلسوف الروسي الشهير «تولستوي»: «من فضائل الدين الإسلامي أنه أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود، ولا سيما قساوسة الأولين ، فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم، حتى أباح هذا الدين لأتباعه التزوُّج من المسيحيات واليهوديات، مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن، ولا يخفى على أصحاب البصائر النيّرة ما في هذا من التساهل العظيم»[١] .وهذا هو الأصل السائر في التاريخ الإسلامي، وأبرز دليل على هذا بلوغ اليهود المناصب العليا في الدولة الإسلامية في مختلف الأحقاب، وإلى هذا يشير «صموئيل أتينجر» بقوله: «يلاحظ دارسو التاريخ اليهودي في العصور الوسطى أن السلطات حرصت على جباية الجزية من اليهود، وتطبيق القوانين الإسلامية، ولكنها أتاحت لليهود في الوقت نفسه تقلد العديد من المناصب المهمة، فكان حسداي بن شبروط في بلاط الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث (عبد الرحمن الناصر)، وشموئيل هناجيد (إسماعيل بن النغرالة) في غرناطة إبان القرنين العاشر والحادي عشر، على سبيل المثال، من أبرز الشخصيات اليهودية التي عملت في إطار الخلافتين الأموية والأندلسية، وكذلك خدم الإخوة إبراهيم ووحيد بني سهل التوستاري لدى الخلفاء الفاطميين في النصف الأول من القرن الحادي عشر، وفي إطار الخلافة الفاطمية بمصر تقلد اليهود العديد من المناصب المهمة، ومن الملاحظ أن اليهود اندمجوا طيلة الفترة العثمانية في كافة الأجهزة الحكومية»[٢] .ولئن رُصِدت فترات اضطهاد أحياناً فذلك إنما كان لفترات قصيرة استثنائية، ثم إنها في عمومها كانت ضمن سياق استبدادي عام ولم تكن مختصة باليهود كأتباع ديانة مخالفة، هذا ما يقرره المستشرق الفرنسي «مارسيل بوازار» حين يقول:«الإسلام يتراءى أكثر تسامحاً كلما قَوِيَ واشتدَّ على الصعيدين الداخلي والخارجي، وتنص الآية القرآنية التي تمنع الإكراه على اعتناق الدين عن تأكيد لا يتزعزع، وقوة الأُمَّة تُوفّر للمؤمن ألا «يُخِيفَ» اليهودي ولا المسيحي، وأن يحترم –بالتالي– شخصهما ودينهما ومؤسساتهما، وينبغي من جهة أخرى الإشارة إلى أن الشعوب الإسلامية بمختلف نزعاتها؛ الدينية أو الفلسفية، قد قاست ما قاساه المعاهدون حين بلغ جو التعصب ذروته (في السلطة)، إن لم تكن قاست أكثر مما قاسوا، وتنقل الكتب مثلاً أن أحد المسلمين لم ينج من القتل على أيدي زمرة تخالفه الرأي إلا بعد أن ادعى أنه ذمي»[٣] .ويزيد المعنى وضوحاً المستشرقُ الإيطاليُّ الشهير «فرانشسكو جابرييلي» عندما يقارن بين الإسلام والمسيحية بقوله: «إننا يجب أن نذكر دائماً أن الإسلام أضفى على «عقائد أهل الكتاب» –أي المسيحية واليهودية– مكانة خاصة يحميها الشرع، وإن تكن ذات مرتبة أدنى في الدولة، ولم يَدُم التزمت والاضطهاد فترات طويلة إلا في أوقات الشدَّة، وعدم الشعور بالأمان، أما قانون المسيحية فليس فيه أي مكان لأي دين آخر، لذا فقد انتقل بسرعة وبتطور منطقي، عندما انتصر على الإسلام إلى التعصب والاضطهاد»[٤]

اليهود في ظل الخلافة الراشدة

بدأت الفتوحات في عصر الخلافة الراشدة، تلك الفتوحات التي كانت إنقاذاً لليهود في البلدان المفتوحة من الاضطهاد المنهجي المتكرر، يقول مؤرخ الحضارة «ول ديورانت»: «كان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين، إلا أنهم في عهدهم قد فُرضت عليهم عدة قيود ولاقوا شيئاً من الاضطهاد من حين إلى حين، غير أنهم مع هذا كانوا يُعاملون على قدم المساواة مع المسيحيين، وأصبحوا

مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وفي ممارسة شعائر دينهم في بيت المقدس، وأثروا كثيراً في ظل الإسلام وفي آسيا، ومصر، وإسبانيا، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين»[٥].وهم لم يرحبوا فقط بل ساعدوا في الفتوح كما يقرر المستشرق البريطاني الخبير «توماس أرنولد»: «وكان من أثر هذا الاضطهاد أن رَحَّب اليهود بالعرب الغزاة وعَدُّوهم مُخَلِّصين لهم مما حلَّ بهم من المظالم، فساعدوهم على فتح أبواب المدن، كما استعان بهم الفاتحون في حماية المدن التي وقعت بأيديهم»[٦]. بل لقد منح الفتح الإسلامي لليهود أملاً جديداً في الحياة كما تقول الباحثة البريطانية في مقارنة الأديان «كارين أرمسترونج»: «فقد كان الأباطرة البيزنطيون قد جرَّموا الديانة اليهودية، كما أوشك هرقل على إجبار اليهود على أن يُعَمَّدوا مسيحيين، لذا كان اليهود على استعداد لمؤازرة المسلمين كما سبق لهم أن آزروا الفرس، خاصة أن عقيدة المسلمين التوحيدية كانت أكثر قرباً لليهودية منها للمسيحية، كما أن المسلمين لم يحرروهم فقط من ظلم بيزنطة، لكنهم أيضاً منحوهم حق الإقامة الدائمة في المدينة المقدسة» [٧].ولا يثير الدهشة إذن أن يتسبب هذا التغيير في إلهام اليهود ببعض الأحلام الرؤياوية، خاصة أن المسلمين حاولوا تطهير المعبد، وأصبح هناك تساؤل عما إذا كان ذلك يعني التمهيد لتشييد المعبد النهائي الذي سيقيمه المسيح المنتظر.

وهكذا ظهرت قصيدة عبرية قرب نهاية القرن السابع ترحب بالعرب المبشرين بالمسيح المنتظر وتترقب، آملة أن يجتمع شمل يهود الشتات، وأن يُعاد بناء المعبد، وحينما لم يصل المسيح المنتظر، استمرت نظرة اليهود الراضية عن الحكم الإسلامي في أورشليم، ففي خطاب كتبه حاخامات أورشليم في القرن الحادي عشر، تذكر هؤلاء الرحمة التي أظهرها الإله لشعبه حين سمح لـ«مملكة إسماعيل» أن تفتح فلسطين وعبروا عن غبطتهم لوصول المسلمين إلى أورشليم[٨].وهكذا لم يكن الأمر مجرد التقاء أغراض سياسية ثم ينقلب الفاتح إلى باطش، بل على العكس كما تقرر المستشرقة الألمانية «زيجريد هونكه»: «فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامي بـ«الجبر»، وإنما بسط سلطان الله في أرضه، فكان للنصراني أن يظلَّ نصرانياً، ولليهودي أن يظلَّ يهودياً كما كانوا من قبل، ولم يمنعهم أحدٌ أن يُؤَدُّوا شعائر دينهم، ولم يكن أحد لِيُنزِل أذى أو ضرراً بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبِيَعِهم وصوامعهم وكنائسهم»[٩]. لم يسيطر اليهود في أي مكان على جيوش أو دول في فترة الفتوحات الإسلامية بخلاف المسيحيين والزرادشتيين. كان اليهود يعيشون في الأماكن التي يقطنون فيها كأقليات دينية مع بعض المعوقات الاجتماعية والدينية، والاقتصادية المفروضة عليهم من قبل الدولة والدين الرسمي للدولة. وبالتالي لما تقدمت الجيوش الإسلامية ضد البيزنطيين والفرس فإنها لم تهاجم اليهود مباشرة، بالرغم من أن بعض اليهود اختاروا الالتحاق بمضيفيهم في الدفاع ضد الغزوات. لكن اليهود اختاروا في غالبية الأحوال إما عدم مقاومة المسلمين أو التعاون النشيط معهم. فقد ساعد اليهود في حمص على منع الجيش الروماني من الدخول للدفاع عن المدينة. وساعد اليهود المسلمين على اختراق دفاعات مدينتي الخليل وسيزاريا (قيساريا: جنوب حيفا). وقاموا بثورة مسلحة في أسبانيا ضد حكامهم المسيحيين، وعينوا من قبل المسلمين في محميات عسكرية لإبقاء المدن الأسبانية تحت السيطرة الإسلامية

كان اليهود في حال أحسن عند المسلمين مما كانوا عليه عند المسيحيين الرومان ويبدو أن أحوالهم كانت أفضل مما كانت عليه عند الفرس الزارادشتيين. لكن عالم العصور الوسطى لم يكن يشارك في القيم الغربية الحديثة في التعددية والمساواة الدينية. كان اليهود أحرارا في ممارسة دينهم دون تدخل، لكن يطبق عليهم عدد من القيود التي قننت في ميثاق عمر (العهدة العمرية) [١٠].ففي بعض العصور الإسلامية، لم يسمح لهم القيام بأنشطة دينية عمومية، أو بناء معابد أو إصلاح الموجود منها إلا بإذن خاص من الحاكم ولا يسمح لهم أيضا برفع أصواتهم في أثناء الصلاة بطريقة تلفت انتباه المارة. إضافة إلى هذا فإن اليهود (والمسيحيين) يمنعون من حمل السلاح ومن ركوب الخيول المسرجة أو من بناء بيوت أكبر من بيوت المسلمين. وكانوا دائما مطالبين بإظهار الاحترام للمسلمين كالقيام من مكان جلوسهم إذا رغب المسلمون في الجلوس فيه، والنزول من على بغالهم وحميرهم عند المرور بأحد المشاة من المسلمين. ولقد منع اليهود أيضا من الوظيفة الحكومية ومن المراكز العمومية الحساسة أو من ضرب مسلم. [١١].

المبحث الثاني نظرة المسيحيين للفتوحات الإسلامية

تأمل مسيحيو المشرق أن يروا البدو العرب وهم يعودوا إلى من حيث أتوا، إلى الصحراء، بعد أن تُدفع لهم الأموال والمؤن ، كما كانوا يفعلون دائماً عند غاراتهم على أهل الحضر قبل ظهور الإسلام . لم يكن في وسع المسيحيين المتحضرين، خاصة الآشوريين (السريان) ، أن يقيم البدو الغزاة "إمبراطورية إسلامية" تحل مكان"المحتل (الروماني – الفارسي). تتحدث بعض المصادر عن أن قادة الغزوات العربية الإسلامية رفضوا قبض مبالغ مالية كبيرة عرضتها عليهم الكنائس، لقاء طردهما لمحتلين ، والعودة إلى من حيث أتوا وترك المسيحيين يديرون شؤونهم ويحكمون مناطقهم. العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام، لم تعد أهداف غزواتهم تقتصر على الغنائم والمنافع المادية، كما كان الحال قبل الإسلام، وإنما تطلعوا الى نشر دينهم الجديد "الإسلام" بين الشعوب الأخرى وإقامة "دولة إسلامية" تضم جميع المناطق والبلدان التي يستحلونها. " عام٢١٨هـ/ ٨٣٣ م العرب المسلمين يقودهم

الأمير الحمداني – مبعوث الخليفة في بغداد– بغزو المناطق التاريخية للسريان المسيحيين في موزوبوتاميا العليا(ماردين– نصيبين– راس العين) بذبح المسيحيين وأجبروا الناجين على اعتناق الإسلام ، حتى سقطت المنطقة عام (٢٥٤هـ/٨٦٨ م) تحت سلطة الحمدانيين القادمون من الجزيرة ووصلت غزواتهم حلب عام (٣٣٣هـ/٩٤٤" م). هذه الوقائع والأحداث التاريخية تُدحض كل ما قيل عن أن الآشوريين (السريان) استقبلوا العرب المسلمين بالترحاب وسلموا لهم مفاتيح المدن السريانية المسيحية في سوريا وبلاد الرافدين من دون قتال[١٢]. الإسلام لم يكتف بحرمان مسيحيي المشرق (أصحاب الأرض) من فرصة إقامة دولهم وكياناتهم الوطنية الخاصة بهم في مناطقهم التاريخية، وإنما ومن خلال الشروط التي فرضها عليهم – العيش كرعايا وأهل ذمة منتقصي الحقوق في كنف الدولة الإسلامية– نجح بمحاصرة "المسيحية" في موطنها ، حتى تلاشت من كثير من مناطق المشرق وغدت التجمعات المسيحية المتبقية فيه أشبه بـ"جزر" معزولة ،مهددة بالغرق في "بحر إسلامي" يقضم أجزاءً منها مع كل هيجان جديد له. [١٣].ان سقوط وتفكك (دولة الخلافة الإسلامية العثمانية)، الأكثر ظلماً واضطهاداً للمسيحيين، على أيدي الجيوش الأوربية إبان الحرب العالمية الأولى، أتاح الفرصة لشعوب المنطقة التحرر من الاحتلال العثماني وإنشاء دولها وكياناتها الوطنية الخاصة[١٤]..

المبحث الثالث رأي المستشرقين في الفتوحات الإسلامية

لقد كانت الفتوحات الإسلامية مثلا حيا لقصر نظر المستشرقين وسوء قصدهم حيال الإسلام. وعلى الرغم من ذلك الكم الهائل من المراكز والمؤسسات العلمية التي تعنى المستشرقون والفتوحات الإسلامية بدراسة الإسلام في الغرب، فإنها قد وقعت فريسة لتلك النظرة العدائية حيال الإسلام وأهله. ومن هذا المنطلق، يجب أن تكون دراسة الإسلام مجردة من الهوى وعلى أسس من الموضوعية والحياد ، وقراءة الوثائق التاريخية قراءة خالية من التعصب العرقي والمذهبي .يقول الدكتور مصطفى السباعي: «لا نحتاج إلى استنتاج وجهد في البحث لنتعرف إلى الدافع الأول إلى الاستشراف، وهو الدافع الديني. وهؤلاء –يقصد المستشرقين– كان يهمهم أن يطعنوا في الإسلام، ويشوهوا محاسنه، ويحرفوا حقائقه ليثبتوا للغرب المسيحي أن الإسلام –وقد كان يومئذ الخصم الوحيد للمسيحية في نظر الغربيين– دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج ولصوص وسفاكو دماء»[١٥]..

الهدف الديني للمستشرقين

ولأن هؤلاء المستشرقين هم جند مجندة لخدمة دينهم وأوطانهم، فقد كان من الطبيعي أن يصدوا سبيل شعوبهم عن ميزة أو حسنة عن الإسلام وأهله ، خشية أن يقع أهل ملتهم في أسر هذا الدين الذي دانت به ممالك العالم القديم طواعية واختيارا، بل وأصبح في قلب أوروبا. وفي هذا يقول الدكتور إسحق موسى الحسيني: "إن الهدف الديني هو مقصد المستشرقين الأوائل في القرون الوسطى بوجه خاص، وهذا يعلل كونهم من اللاهوتيين في الغالب. فقد أرادوا من دراسة الإسلام أن يدفعوا عن بني دينهم الاستسلام لهذا الدين الجديد الذي ذاع ذيوعا سريعا في البلدان التي كان معظم سكانها يدينون بالمسيحية" [١٦]. وقد تبارت مؤلفات المستشرقين على اختلاف مذاهبهم، العرقية والدينية، في الطعن في الإسلام كعقيدة، وعلى العرب كأمة. ولعل الدليل الحي على ذلك هو دائرة المعارف الإسلامية بكل ما فيها من مطاعن وأكاذيب ومغالطات، والتي تولى تحريرها جمهرة كبيرة من المستشرقين. غير أن مترجمي الدائرة قد هالهم هذا الكم الكبير من المطاعن والأكاذيب والمغالطات، فأوكلوا إلى عدد من علماء المسلمين الرد والتعقيب على ما ذكره المستشرقون في هذه الدائرة. غير أن القراءة العابرة لمواد الدائرة سوف تكشف عن أن مواضع التعليق والتعقيب أكثر ما تسود في تلك المواد التي تتعلق بكل ما يمت إلى الإسلام كشريعة بصلة[١٧]..لقد شاءت أهواء هؤلاء المستشرقين، وسوء نيتهم حيال الإسلام والمسلمين أن يختلقوا الأكاذيب لكل ما يمت إلى الإسلام بصلة، محاولين، جهد طاقتهم، أن يجردوا الإسلام والمسلمين من كل فضيلة أو ميزة. غير أن أمرا واحدا استعصى على التبرير أو التفسير فلم يملكوا حياله سوى التسليم المطلق من البعض، وكابر البعض الآخر، فكذب وادعى واختلق ما شاء له الاختلاق فلم يقنع أحدا بدعواه. وهذا الأمر الواحد الذي وقف أمامه المستشرقون طويلا هو الفتوحات الإسلامية.

الفتوحات الإسلامية وقوانين التاريخ

الحقيقة أن فريقا من مؤرخي الغرب قد رأوا في تلك الفتوحات خروجا على قوانين التاريخ.. فها هو شعب غارق في البداوة، لا قبل له بالفنون العسكرية، ولا يملك جيشا منظما، بل كل ما يملكه عقيدة قد رسخت في وجدانه، يخرج من صحرائه ليقاتل في سبيل الله ويفتح البلاد، بلدا إثر بلد، بل ومن العجيب في الأمر أن الكثير من البلاد قد فتحت صلحا من دون قتال، لتدخل شعوبها في دين الله أفواجا. ولم يملك هذا الفريق من المؤرخين سوى التسليم المطلق بقدرة هذا الدين في نفوس العرب .وعلى سبيل المثال يقول هـ. ج. ويلز H. G. Wells: «لو أن هاويا للتنبؤ في التاريخ استعرض أحوال العالم عند مستهل القرن السابع الميلادي، لأمكنه أن يستنتج بحق أنه لن تنقضي قرون حتى تقع أوروبا وآسيا بأكملها في قبضة المغول. أما النقطة التي ربما تعرض فيها ذلك المتكهن للخطأ فهي تجاهله للقوى الكامنة في الصحراء العربية، إذ إن بلاد العرب ربما لاحت لعينيه على صورتها التي دامت عليها منذ أزمان سحيقة القدم، حيث كانت مرتعا لقبائل صغيرة من الرحل، وقد انقضت آنذاك أكثر من ألف سنة لم ينشئ

شعب سامي في أثنائها إمبراطورية واحدة.ثم ما لبث نجم البدو أن سطع بباهر الضياء مدة قرن واحد حافل بالأبهة والفخامة، مدوا في أثنائه حكمهم ولغتهم من بلاد الأندلس حتى حدود الصين، ومنحوا العالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم»[١٨].ولأن الفتوحات الإسلامية كانت خروجا على حركة التاريخ، إذ لم يمض سوى أقل من قرن من الزمان حتى وسع ملكها قارات العالم القديم من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غربا، فليس من العجيب أن يصف ويلز هذه الفتوحات بقوله: «إنها أعجب قصص الفتوح التي مرت على مسرح تاريخ الجنس البشري». أما ول ديورانت W. Durant فيصفها في كتابه الشهير «قصة الحضارة» بأنها «أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله»[١٩].

شبهات حول الفتوحات الإسلامية

ولقد عز على جمهرة كبيرة من المستشرقين والمؤرخين أن يجدوا في المسلمين فضيلة من الفضائل، وهي الإيمان المطلق بالإسلام، والاجتماع على كلمة الحق التي أوحى بها الله تعالى إلى نبيه محمد –صلى الله عليه وسلم–، فأرادوا أن يسلبوا المسلمين هذه الفضيلة، فلم يجدوا في جعبتهم سوى أن يفسروا الفتوحات الإسلامية تفسيرا غاية في الغرابة من دون سند من منطق أو عقلانية. ويتلخص هذا التفسير في أن العرب بعد إسلامهم قد ضاقت الأرزاق عليهم لجدب بلادهم فأغاروا على ما جاورهم من البلاد.يقول المستشرق الألماني يوسف هل J.Hell: «إن السبب في ميل الشعب العربي إلى الهجرة هو جفاف بلادهم. وقد اقترن هذا الجفاف بظهور الإسلام مما أدى إلى ذلك الانقلاب في التاريخ العالمي». ولم يكتف يوسف هل بهذا التلميح، بل أكده في صراحة لا مواربة فيها فاستطرد قائلا: «وإذا كانت بلاد العرب قد غزت نفسها –يقصد بذلك حروب الردة– فإن ذلك جر عليها الضنك الذي تجلبه الحروب عادة، حيث استنفذت موارد البلاد الضئيلة بطبيعتها، فرأى البدو أن قطعانهم قد هلكت، على حين وجد أهل المدن أن حقولهم قد خربت وتجارتهم قد بارت. ولذلك ظهر الآن الحافز الذي كان يدوي منذ زمن بعيد مناديا بعبور شبه جزيرة العرب والنزول في البلاد المغرية التي تجاورها».وعلى الرغم من أن ول ديورانت أثنى على الحضارة الإسلامية، ورأى أن القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) من أزهى عصور العلم في تاريخ البشرية، فإنه أخطأ أشد الخطأ في تفسير الفتوحات الإسلامية. ولعله كان مدفوعا بآراء من سبقوه من المؤرخين، فزعم أن من أسباب الفتوحات الإسلامية انهيار نظم الري في جزيرة العرب «فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية، وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار. ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزرع والرعي من العوامل التي دفعت جيوش المسلمين إلى الغزو والفتح».[٢٠]. ستانلي لينبول S.Lane– Poole، وهو مستشرق إنجليزي، فقد غالى في تقدير العامل الاقتصادي، إذ جعل من المغانم الدافع الأساسي للغزو، على حد زعمه. ولم ينس، كغالبية المستشرقين، أن يغمز بصورة مستترة من الخلق العربي فيقول: «وما أكثر ما طمع –يقصد بذلك العربي– في البلاد الغنية التي تحيط ببلاده المجدبة، إلا أنه كان يحتاج إلى أمرين يحفزانه إلى التوسع في الفتح، هما: الوحدة الوطنية والدافع القوي، حتى جاءه بهما محمد النبي العظيم، فجمع شمل العشائر المتنافسة المتناحرة وألّف بينها، وجاءهم بدين يقاتلون من أجله. على أننا مع ذلك لا نستطيع أن نزعم أن الدين كان السبب الأساسي لفتوحات العرب الساحقة، مهما كانت دعوته قوية ملزمة. كان هناك حافز أكثر وضوحا، هو الشهوة الجامحة الطبيعية للحصول على المغانم، فقد كانت أمامهم إمبراطوريتا الفرس والروم الغنيتان اللتان شاختا، ولم تقو إحداهما على أن تبدي من المقاومة سوى أقصرهاوأفشلها. ووجد بدو الصحراء أنفسهم في مدى عشرين عاما سادة على الممتلكات الواسعة التي كانت من قبل تحت إمرة قيصر وكسرى...الخ».[٢١].

حقائق وشواهد

تلك كانت بعض الآراء التي راجت لدى جمهرة المستشرقين والمؤرخين. وهي آراء يغلب عليها الطابع العدائي حيال الإسلام والمسلمين، والقراءة الظالمة للتاريخ الإسلامي. غير أن هناك عددا من الحقائق والشواهد التي غابت –قصدا– عن هؤلاء المستشرقين والمؤرخين، والتي تبين فساد الأساس الذي بنيت عليه تلك الآراء.

أولا – إذا كانت جزيرة العرب، في مجملها، لم تكن في خيرات الشام أو فارس أو مصر، فليس معنى هذا أن العربي قد جال في فكره غزوها طمعا واستلابا لخيراتها، بل على العكس تماما فقد ألف العربي الحياة في هذه الصحراء بكل ما فيها من جفاف وجدب، طواعية واختيارا، لا عن إجبار وإكراه، ليس هذا فحسب، بل بلغت ألفة العربي لتلك البيئة الجافة حد الافتتان بها لا الهجرة منها. وتزخر كتب التراث بالشواهد والأقاصيص الدالة على هذا الافتتان وتلك الألفة اللذين لا نظير لهما بين الإنسان وبيئته. فهل نذكر قول ذلك الأعرابي الذي قيل له: كيف تصنع بالبادية إذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله؟ فقال: وهل العيش إلا ذاك؟! يمشي أحدنا ميلا، ويرفض عرقا، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه، ويجلس يكتال الريح فكأنه في إيوان كسرى. [٢٢].ولعلنا نذكر قول ذلك الأعرابي الذي دخل الحضر فاشتاق إلى باديته عازفا عن ترف الحضر ومباهجه قائلا:

لعمري لنور الأقحوان بحائل *** ونور الخزامى من ألاء وعرفج

أحب إلينا يا حميد بن مالك *** من الورد والخيري ودهن البنفسج

وأكل يرابيع وضب وأرنب *** أحب إلينا من سماني وتدرج

ولعلنا نذكر أيضا ذلك الشاعر الذي رحل إلى بغداد وكانت وقتها حاضرة الدنيا، فتشوق إلى باديته فأنشد يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة *** بسلع ولم تغلق علي دروب

فإن شفائي نظرة إن نظرتها *** إلى أحد والحرتان قريب

وللدلالة على مدى حب العربي، رجلا كان أم امرأة، لبيئته الصحراوية، وهي، كما هو معروف، بيئة قاسية على أهلها، تلك الأبيات التي سارت مسرى الأمثال، وهي أبيات قالتها ميسون الكلبية[٢٣]، وقد تزوجها معاوية في ذاك الوقت، لكنها حنت إلى باديتها:

لبيت تخفق الأرواح فيه

أحب إلي من قصر منيف

وأصوات الرياح بكل فج

أحب إلي من نقر الدفوف

وكلب يتبع الأظعان صعب

أحب إلي من هر أليف

هذا هو حال الأعرابي الذي لا يرضى بغير بيئته الصحراوية بديلا، رغم قلة خيراتها، ويغزو بلادا لمجرد الطمع في خيراتها. إذن لم يترك الأعرابي صحراءه عن جفوة لقلة عطائها، أو رغبة في الاستيلاء على خيرات غيره، وإنما تركها مقاتلا في سبيل الله وفي سبيل نشر راية الإسلام.

ثانيا – من المحقق أن العرب الفاتحين لو كان همهم من الفتح مجرد الحصول على الغنائم والأسلاب، لكان الخلفاء أوفر الناس ثروة وثراء، غير أن شواهد التاريخ تثبت عكس ذلك تماما، فلم يملك المستشرقون والمؤرخون سوى الاعتراف بهذا الأمر. يقول المستشرق الفرنسي الشهير ل. سيديو edillot S: "وأوائل الخلفاء هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فلم يسكرهم سلطانهم، فلم يبحثوا عن النفائس والثراء، بل ظلوا أوفياء لحياة الزهد الورع التي كان محمد قدوة لهم فيها. فسار عمر ابن الخطاب إلى القدس ليتسلمها فسافر من المدينة إلى فلسطين من غير حاشية أو حرس، وتوفي أبو بكر فلم يترك لورثته سوى ثوب وعبد وجمل، وكان علي يتصدق على الفقراء في كل جمعة بما عنده من النقود...الخ».

إذن فالعامل الاقتصادي كسبب للفتوح الإسلامية، إنما هو محض افتراء لا سند له من شاهد أو دليل. [٢٤].

ثالثا – من الثابت أن الغالبية العظمى من المستشرقين قد عز عليهم أن يكون صدق العقيدة هو الدافع الرئيسي في الفتوح الإسلامية، فوجدوا ضالتهم في العامل الاقتصادي. فمن أغرب الآراء، وأشدها مجافاة للحقيقة، قول ستانلي لينبول، في تأكيده على أهمية العامل الاقتصادي، عن الخلفاء الأمويين إنهم: «كانوا مسلمين متهاونين، أدركوا أنه كلما اعتنق شخص الإسلام كان هذا معناه خسارة في ضريبة الرؤوس –يقصد الجزية– ولهذا تركوا الشعوب المحكومة تتمتع بحرية عقيدتها ووجهوا اهتمامهم لجباية الضرائب».وأغلب الظن أن سوء القصد هو الذي أملى على هذا المستشرق ذلك الرأي البالغ التهافت، لأن الإسلام قد أباح حرية العقيدة كما ورد في آيات شتى كقوله تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[٢٥].. أما ما يدعيه عن خسارة الخلفاء الأمويين للجزية كلما اعتنق شخص الإسلام، فهو محض افتراء على هؤلاء الخلفاء، إذ إنه لم يقرأ التاريخ الإسلامي على وجهه الصحيح، بل أخذ من هذا التاريخ ما يوافق رأيه، ثم فسره على هواه. ولعله يشير إلى ما حدث من بعض الولاة في العصر الأموي، فقد ورد قوله: «وعزل عمر بن عبدالعزيز الجراح بن عبدالله، عن إمرة خراسان بعد سنة وخمسة أشهر، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار ويقول: أنتم إنما تسلمون فرارا منها. فامتنعوا من الإسلام وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية، فكتب إليه عمر: "إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابيا". [٢٦].إذن فهذا المستشرق كاذب في دعواه، كما كذبه في ذلك مستشرق آخر قد أنصف خلفاء المسلمين، يقول المستشرق الفرنسي سيديو في معرض حديثه عما قام به الخلفاء حيال مصر: «كان الخليفة ينفق معظم الجباية على الأعمال النافعة للبلاد، فأمر بإنشاء قناة القلزم القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر، وأنجزت بفضل تلك الحكومة الصالحة مشاريع عظيمة فأعادت مصر شبابها في زمن قصير»[٢٧].

رابعا – من الواضح أن العامل الديني كان بعيدا عن أذهان هؤلاء المستشرقين، الذين لم يتخيلوا مدى رسوخ الإسلام في بداياته، في أفئدة المسلمين ونفوسهم، وكيف جعل هذا الدين من قبائل العرب المتنافرة والمتناحرة والتي كان يحارب بعضها بعضا لأوهى الأسباب، أمة واحدة، كأنها قلب رجل واحد، تدين بعقيدة واحدة. ومن بين الأقاصيص الكثيرة في كتب التاريخ التي تفسر الفتوحات الإسلامية عبر صدق إسلام العرب الأوائل وشدة بلائهم في سبيل نصرة الإسلام، سوف نختار واحدة منها، وهي قصة أبي محجن الثقفي أثناء وقعة القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– الذي حبسه لأنه كان يقول شعرا في الخمر. [٢٨]. و«كان أبو محجن الثقفي محبوسا في أسفل القصر، فسمع وقع الحديد وشدة البأس، فتأسف على

ما يفوته من تلك المواقف. فصعد إلى سعد يستشفعه ويسأله أن يخلي عنه ليخرج، فزجره سعد ورده. فنظر إلى سلمى بنت حفصة، زوجة سعد، فقال لها: هل لك في خير؟ فقالت: وما ذاك؟ تخلين عني وتعيريني البلقاء –يقصد فرس سعد– ولله علي إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في القيد. فقالت: وما أنا وذلك؟ فرجع يرسف في قيده وهو يقول:

كفى حزنا أن ترتدي الخيل بالقنا *** وأترك مشدودا علي وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد فأغلقت *** مصاريع من دوني تصم المناديا

فلله عهد لا أخيس بعهده *** لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فقالت سلمى: إني استخرت الله ورضيت بعهدك، فأطلقته، فاقتاد بلقاء سعد وركبها، حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبر، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين، فأوقف ميسرتهم وقتل رجالا كثيرين منهم. وحمل على ميمنة القوم فأوقفهم، لا يبدو له فارس إلا هتكه، ووقف بإزاء قلب المشركين ففعل مثل أفعاله في الميمنة والميسرة، وأوقف القلب حتى لم يبرز منهم فارس إلا اختطفه، وحمل عن المسلمين الحرب، فتعجب الناس منه وقالوا: من هذا الفارس الذي لم نره في يومنا؟ وأبو محجن كالليث الضرغام قد هتك الفرسان كالعقاب يجول عليهم. وجعل سعد يفكر ويقول: والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء، فلما انتصف الليل تحاجز الناس وتراجعت الفرس على أعقابها، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ورد البلقاء إلى مربطها وعاد في محبسه ووضع رجله في القيد».[٢٩].فهذا رجل دائم السكر، لكن عز عليه ألا يقاتل في سبيل الله، فكيف يكون الأمر بمن لم يشرب الخمر قط؟! هذه قصة من ألوف القصص التي تزخر بها كتب التاريخ، لعلها تسقط العامل الاقتصادي من آراء المستشرقين.ليظل نشر الإسلام هو الدافع الأساسي في الفتوحات الإسلامية.

رأي المستشرقين في انتشار الإسلام وقبوله

١. توماس آرنولد " لم نسمع عن أية محاولة مُدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام .. أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي من قِبل المسلمين " [٣٠]. " لقد عامل المسلمون المنتصرون العرب : المسيحيين : بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة !!.. واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة .. ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام : قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة !!.. وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين : لخير شاهد على هذا التسامح " [٣١]. ويوضح توماس ارنولد ان خراج مصر كان على عهد عثمان : اثنا عشر مليون دينار .. فنقص في عهد معاوية حتى بلغ خمسة ملايين .. ومثله كان في خراسان .. فتلاعب بعض الأمراء في شرع الله : طمعاً في الخراج والجزية .. فلم يُسقطهما بعض الأمراء عمّن أسلم من أهل الذمة (حيث المفترض أن الخراج والجزية عن الكافرين فقط وليس المسلمين) !! ولهذا السبب : قام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بعزل واليه على خراسان : الجراح بن عبد الله الحكمي .. وكتب له كلمته المشهورة : إن الله تعالى بعث محمداً هادياً .. ولم يبعثه جابياً " [٣٢]. ويقول عن الجزية : "ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين – كما يريدنا بعض الباحثين على الظن – لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة. وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين" [٣٣].

٢. (ويل ديورانت) " في كتابه قصة الحضارة يقول، لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح : لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام !! فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم .. واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم " !!ويقول أيضا في نفس الكتاب :" وكان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين .. وأصبحوا يتمتعون بـ كامل الحرية في حياتهم وممارسة شعائر دينهم . وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم .. وكان الحجاج المسيحيون يأتون أفواجاً آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين .. وأصبح المسيحيون (أي في بلاد المسلمين) والذين خرجوا على كنيسة الدولة البيزنطية (أي كنيسة روما) .. والذين كانوا يلقون صوراً من الاضطهاد على يد بطاركة القسطنطينية وأورشليم والإسكندرية وإنطاكيا .. أصبح هؤلاء الآن : أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين " [٣٤]. ويقول ايضا" وعلى الرغم من منهج التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون .. أو بسبب هذا المنهج : اعتنق الدين الجديدَ معظم المسيحيين .. وجميع الزرادشتيين والوثنيين إلا عدداً قليلاً منهم !!!.. واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلدان الممتدة من الصين وإندونيسيا إلى مراكش والأندلس !!!!.. واستحوذ على خيالهم .. وسيطر على أخلاقهم !!.. وصاغ لهم حياتهم .. وبعث آمالاً : تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها " [٣٥].ويواصل (ويل ديورانت) بيانه للأصناف التي كانت تستثنيهم الجزية فيقول :" وأنه كان يُعفى

منها الرهبان !! والنساء !! والذكور الأقل من سن البلوغ !! والأرقاء (أي العبيد) !! والشيوخ !! والعجزة !! والعميان !! والفقراء !! وكان الذميون يُعفون في نظير هذه الجزية من الخدمة العسكرية ولا تفرض عليهم الزكاة " .. (٣٦).

ويقول ويل ديورانت: "ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح .. وكان الذميون يعفون في نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية .. وكان لهم على الحكومة أن تحميهم(٣٧).

٣.غوستاف لوبون وينقل مترجم كتاب (حضارة العرب) لـ (غوستاف لوبون) قول (روبرتسن) في كتابه (تاريخ شارلكن) :" إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم .. وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى .. وإنهم مع امتشاقهم الحسام (أي السيف) نشراً لدينهم .. فقد تركوا مَن لم يرغبوا في هذا الدين : أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية " (٣٨). ويقول (غوستاف لوبون) ايضا " إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن .. فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم .. فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام .. واتخذ العربية لغة له : فذلك لِما كان يتصف به العرب الغالبون من أنواع العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله !!!.. ولِما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى " !!ويقول أيضا :" وما جهله المؤرخون أن حِلم العرب الفاتحين وتسامحهم : كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحاتهم وفي سهولة اقتناع كثير من الأمم بدينهم ولغتهم !! والحق : أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب .. ولا ديناً سمحاً مثل دينهم " (٣٩).

٤. الراهب (ميشود) في كتابه (رحلة دينية في الشرق) قوله :" ومن المؤسف أن (تقتبس) الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح !!.. والذي هو آية الإحسان بين الأمم !!.. واحترام عقائد الآخرين .. وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة"(٤٠).

٥. (أيه إس ترتون) ينقل شهادة البطريك (عيشو يابه) الذي تولى منصب (البابوية) حتى عام ٦٥٧ هـ حيث يقول :" إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون .. إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية !!.. بل يمتدحون ملتنا !!!.. ويوقرون قديسينا وقسسنا !!!.. ويمدون يد العون إلى كنائسنا وأديرتنا " (٤١).

٦. ادم متز وقد سجل المؤرخون هذا البُعد الجميل في تسامح المسلمين، وأنهم تركهم لمواطنيهم حق التحاكم إلى شرائعهم وبواسطة قسسهم ورجال دينهم، يقول آدم متز: "ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً بالمسلمين، فقد خلَّت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم، والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به" (٤٢).ويقول أيضاً: "أما في الأندلس، فعندنا من مصدر جدير بالثقة أن النصارى كانوا يفصلون في خصوماتهم بأنفسهم، وأنهم لم يكونوا يلجؤون للقاضي إلا في مسائل القتل(٤٣).وأخيرا يقول (آدم ميتز)" كان أهل الذمة يدفعون الجزية : كلٌ منهم بحسب قدرته .. وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني .. فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح !!.. فلا يدفعها ذوو العاهات ! ولا الرهبان وأهل الصوامع : إلا إذا كان لهم غنىً"(٤٤).لذا حُقَّ لآدم ميتز أن يرى الجزية أشبهت ما نسميه اليوم بالخدمة العسكرية، إذ يقول: "وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح" (٤٥).كما وقعت بين المسلمين ومواطنيهم فتن قليلة ما كان لها أن تشوه صفحة التعايش الجميل الذي أرساه الإسلام طوال قرون متعاقبة، فمثل هذه الوقائع القليلة حصلت بين المسلمين أنفسهم، لكن آدم متز ينبهنا إلى براءة المسلمين في كثير مما وقع من فتن بينهم وبين مواطنيهم من أهل الذمة، إذ «أكثر الفتن التي وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط» (٤٦). والمتصرفون الذين يعنيهم آدم متز هم نصارى أوكل إليهم المسلمون رعاية شؤون أهل دينهم من النصارى، فأساؤوا التصرف، وكانوا سبباً للوقيعة بين المسلمين والنصارى في أكثر الفتن.ويمضي متز ليقول بتعجب بالغ بأن المسلمين نالهم الأذى من بعض هؤلاء المسؤولين من أهل الذمة: «من الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال [أي المسؤولين] والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام، والشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة ... وكانت الحركات التي يقصد بها مقاومة النصارى موجهة أولاً إلى محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين» (٤٧).

٧. فيليب حتِّي فيقول: "وقد تمتع أهل الذمة في هذا الوضع بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج، وكانوا يرجعون في قضاياهم المدنية والجزائية إلى رؤسائهم الروحيين ، إلا إذا كانت القضية تمس مسلماً" (٤٨).ويقول ان" رغبة أهل الذمة في التحاكم إلى التشريع الإسلامي !!.. واستئذانهم للسلطات الدينية في أن تكون مواريثهم حسب ما قرره الإسلام " (٤٩).

٨. المفكر الأسباني (بلاسكوا أبانيز) في كتابه (ظلال الكنيسة) متحدثاً عن الفتح الإسلامي للأندلس :" لقد أحسنت (أسبانيا) استقبال أولئك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الإفريقية (يعني المسلمين) .. وأسلمتهم القرى برمتها بغير مقاومة ولا عداء !!!.. فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان

العرب من إحدى القرى .. حتى تفتح لها الأبواب !!.. وتتلقاها بالترحاب !!!.. فكانت غزواتهم غزوة تمدين وحضارة ولم تكن غزوة فتح وقهر .. ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن فضيلة حرية الضمير .. وهي الدعامة التي تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب !!!... فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس النصارى و بيع اليهود (جمع بيعة) ولم يخشَ المسجد من معابد الأديان التي سبقته .. بل عرف لها حقها !!.. واستقر إلى جانبها .. غير حاسد لها .. ولا راغب في السيادة عليها " (٥٠).

٩... المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكه)تقول " العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام .. فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها : سمح لهم جميعاً دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم .. وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى !!!!.. أو ليس هذا منتهى التسامح ؟!!!.. أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ؟.. ومتى " (٥١).

١٠. المستشرق الهولندي دوزي راينهارت يشير دوزي الى " إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة : أدى إلى إقبالهم على الإسلام .. وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة : مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة " !! نقول نحن الباحثون المسلمون : ولعل ذلك يفسر لنا الدخول الكبير لشعوب باكملها في الإسلام طواعية أو معظمها كما وقع في بلاد إندونيسيا والشمال الأفريقي بأكمله من مصر إلى المغرب وغيرهم بغض النظر عمن يريد إثارة القومية بين المسلمين من وقتها إلى اليوم بقصص وأكاذيب لا تثبت تاريخيا (مثل إثارة النصارى في مصر أو البربر أو الأمازيغ إلخ) وسوف يكون لنا منشور كامل بإذن الله عن التثبت في قصص وأسانيد الروايات في الإسلام (٥٢).

١١. فان فلوتن قوله بأن "الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من ضروب الإصلاح، والحقيقة أن الجزية لم تكن عقاباً لأهل الذمة، فهي نظير إعفائهم من الجندية وفي مقابل حماية المسلمين لهم"(٥٣).

الخاتمة

- الإسلام دين الله الخاتم الذي أرسل به الله تعالى محمداً – صلى الله عليه وسلم – رحمة للعالمين، وارتضى دينه من بين سائر الأديان ديناً.
- الإسلام سبق إلى رعاية حرية الإنسان في البقاء على دينه، وأن لا يكره على تركه، كما ضمن حرية العبادة وسلامة دورها
- أهل الذمة والأمان والعهد مصطلحات أطلقها الفقهاء المسلمون على غير المسلمين المقيمين أو الوافدين إلى بلاد الإسلام، وتفيد أن هؤلاء في عهد المسلمين وذمتهم وحمايتهم.
- اعترف الإسلام بوجود الأديان تجانساً مع اعترافه بحتمية الخلاف وبقدرة الإنسان على التمييز والاختيار.
- الإكراه على الإسلام سوءة لم يصنعها المسلمون طوال تاريخهم بسبب قطعية النصوص المحرمة لذلك، وقد شهد لهذا المؤرخون الغربيون وغيرهم.
- حرص فقهاء الإسلام وملوكهم على رعاية أهل الذمة وحراسة حقوقهم فرقاً من وعيد النبي – صلى الله عليه وسلم – لمن ظلمهم واعتدى عليهم.
- أدركت الأمم عظمة الإسلام وسماحة دين الفاتحين، فأحسنت استقبالهم وكانت عوناً لهم على حفظ الثغور ورد العدوان.
- شمل الإسلام بتعاليمه أهل الذمة في نظامه التكافلي، فتحول الذمي من دافع للجزية إلى مكفول من قبل المجتمع المسلم.
- الجزية نظام عرفته الأمم قديماً كما شرعته الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى، بيد أن الإسلام سما بهذه الشريعة، وأضاف إليها ضمانات فريدة في مقابل دنانير معدودة سارع المغلوبون إلى دفعها.

هوامش الهوامش البحث

(١)تولستوي، حِكَم النبي محمد، دراسة وتقديم: د. محمود النجيري، مكتبة النافذة ط١ (الجيزة: ، ٢٠٠٨م)، ص٤٣، ٤٤.

(٢)صموئيل أتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية، ،ترجمة جمال احمد الرفاعي ،رشا عبد الله الشامي ، عالم المعرفة ، العدد ،١٩٧ص٤٩،

(٣)مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام، ترجمة: د. عفيف دمشقية، دار الآداب، ط١ (بيروت: ١٩٨٠م)، ص٢٠٢.

(٤)فرانشسكو جابرييلي، الإسلام في عالم البحر المتوسط، ضمن "تراث الإسلام"، بإشراف: جوزيف شاخت، وكليفورد بوزوروث، ترجمة: د. محمد زهير السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة ١١ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت، ، ١٩٨٧م)، ص١١٤.

(٥)ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: مجموعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ٢٠٠١م)ج ١٣،ص١٣١.

(٦)توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، : مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ، ١٩٨٠)، ص١٥٥

(٧)كارين أرمسترونغ، تاريخ الأسطورة ، ترجمة وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم، (بيروت، ٢٠٠٨)،ص١٩

[٨]كارين أرمسترونج، القدس: مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، (القاهرة، ١٩٩٨م)، ص٣٩٤.

[٩]زيجريد هونكه، الله ليس كذلك، ترجمة د. غريب محمد غريب، دار الشروق، ط٢ (القاهرة: ، ١٩٩٦)، ص٤١.

[١٠]العهدة العمرية هي كتاب كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (القدس) عندما فتحها المسلمون عام١٧هـ/ ٦٣٨م، أمنهم فيه على كنائسهم وممتلكاتهم. وقد اعتبرت العهدة العمرية واحدة من أهم الوثائق في تاريخ (القدس)، ينظر، ابن القيم الجوزية ، احكام اهل الذمة ، تحقيق يوسف بن احمد البكري ،وشاكر العروي ، السعودية ،١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م ،ص١٢٧

[١١]روبن فايرستون ،يهودية الأحبار، التلمود وعالم القرون الوسطى ،فصل من كتاب "ذرية إبراهيم" – مقدمة عن اليهودية للمسلمين متاح على الموقع http://mfa.gov.il/MFAAR/InformationaboutIsrae

[١٢] إيف ترنون، كتاب ماردين، وترجمة الأستاذ يوسف باريش نقلته إلى العربية لطيفة عرنوق،(باريس ، ١٩١٥) ص١٩

[١٣] سليمان يوسف يوسف، مسيحيو المشرق والغزو الاسلامي، (بيروت ، ١٩٨٧)،ص١٢٩

[١٤] المرجع نفسه ، ص٢١

[١٥]السباعي : مصطفي ، الاستشراف والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، (دار الوراق للنشر والتوزيع – المكتب الإسلامي ،)ص١٢٤

[١٦]اسحق موسى الحسيني ، الهدف الديني للاستشراف ،من دراسة التراث الإسلامي، بحث منشور في مجلة الفكر الإسلامي ،العدد الأول، تموز،٢٠١٢،ص٨٨.

[١٧]ريتشارد سوذرن . صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى. ترجمة وتقديم رضوان السيد.(بيروت: ١٩٨٤)ص٥٨

[١٨] . هـ ج ويلز. موجز تاريخ العالم، ترجمة، تحقيق: عبد العزيز توفيق جاويد،مكتبة الكندل العربية ، (مصر، ١٩٥٢)ص٢٢١

[١٩]وِل ديورَانت ، قصة الحضارة ، ج١٧ ، ص٩٠

[٢٠]وِل ديورَانت ، قصة الحضارة ، ج١٧، ص٦٠

[٢١]ستانلي لينبول، سيرة القاهرة ، ترجمة د حسن إبراهيم حسن ، د علي إبراهيم حسن ، د. إدوار حليم ، طبعة مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة للكتاب(القاهرة ،١٩٩٧م)ص١٤٥

[٢٢]طاق كسرى أو إيوان كسرى أو إيوان المدائن بناء أثري بقي من العهد الساساني، ويقع على بُعد أربعين كيلومتراً تقريباً جنوب مدينة بغداد، بالقرب من مدينة سلمان باك الصغيرة التي تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة وفيها مرقد سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان ينظر، الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٧٤؛

[٢٣] ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبية (ماتت في عام ٨٠ هـ/٧٠٠م)، زوجة الخليفة الأموي الأول ومؤسس الخلافة الأموية معاوية بن أبي سفيان، ووالدة الخليفة الأموي الثاني يزيد بن معاوية، وبهذا كان لها دور كبير في الحياة السياسية في الخلافة الأموية. وهى من أقدم الشاعرات العربيات ذوات السمعة الطيبة ، ينظر ترجمتها عند ابن عساكر،تاريخ دمشق ،ج٢١، ص٣٤

[٢٤]ل.أ. سيديو ، تاريخ العرب العام ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، (القاهرة ، ١٩٤٨م)، ص ص ١٦٥-١٦٦

[٢٥] سورة البقرة ، الاية ٢٥٦.

[٢٦] ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) البداية والنهاية ، المحقق: علي شيري ، الناشر: دار إحياء التراث العربي الطبعة: الأولى(بيروت، ١٤٠٨، هـ /١٩٨٨ م ج٩ ، ص٢٥

[٢٧]ل.أ.سيدو.،تاريخ العرب العام, ص١٦٦

[٢٨]المسعودي ، أبو الحسن على بن الحسين بن على(ت،٣٤٦هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: أسعد داغر ، الناشر : دار الهجرة (قم١٤٠٩هـ)ج٢ ، ص٢١٤

[٢٩]المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج٢ ، ص٢١٤

[٣٠]توماس أرنولد , الدعوة إلى الإسلام ،ترجمة إبراهيم حسن وزملائه , مكتبة النهضة العصرية، ط٣ ,(القاهرة , ١٩٧٠ م) ،ص٩٩

[٣١]المرجع نفسه ،ص٥١.

[٣٢]المرجع نفسه ،ص٩١

(٣٣)توماس أرنولد , الدعوة إلى الإسلام ،ص٥٨

(٣٤)وِل ديورَانت ، قصة الحضارة ، ج١٢، ص١٣١

(٣٥)المرجع نفسه، ج١٢، ص١٣١

(٣٦)المرجع نفسه، ج١٢، ص١٣١

(٣٧)المرجع نفسه، ج١٢، ص١٣١

(٣٨)غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة،(بيروت ١٩٧٩)،ص١٢٨

(٣٩)غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص١٢٧

(٤٠)انظر حاشية الصفحة (١٢٨) من كتاب "حضارة العرب" لغوستاف لوبون،ص٢٩

(٤١)ا. س. تريتون ; أهل الذمة في الإسلام ، ترجمة و تعليق حسن حبشي. دارالفكر العربي ،(القاهرة , ١٩٤٩) ص١٥٩

(٤٢)آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة دار النشر: دار الكتاب العربي ،ط٥(بيروت، بلا) ج١ ، ص٩٣

(٤٣) المرجع نفسه ، ج١،ص٩٣

(٤٤)المرجع نفسه ، ج١،ص٩٦

(٤٥)المرجع نفسه ، ج١،ص٧٤

(٤٦)آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري،ج١ ، ص١١٢

(٤٧)المرجع نفسه ،ج١ ، ص١٠٥-١٠٦

(٤٨)فيليب حتى، تاريخ العرب ،ترجمة إدوارد جرجي، جبرائيل جبور (بيروت ١٩٦٥.)ص ١٠٤

(٤٩)المرجع نفسه ، ص١٠٤

(٥٠)بلاسكوا أبانيز ،ظلال الكنيسة، نقلا منقذ بن محمود السقار، التعايش مع غير المسلمين في المجتمع المسلم ،الناشر: رابطة العالم الإسلامي – مكة المكرمة ،الطبعة: الأولى، (مكة المكرمة ،١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م) ص٣٤

(٥١) زيغريد هونكه ،شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية : فاروق بيضون وكمال دسوقي اصدار : دار الجيل و دار الأفاق الجديدة، الطبعة : الثامنة (بيروت، ١٩٩٣ م) ص٣٦٤

(٥٢) دوزي راينهارت بيتر آن ،ملوك الطوائف و،نظرات في تاريخ الاسلام ،ترجمه:كامل كيلاني (مصر ، ١٩٣٣)

(٥٣)نقلا عن الخربوطلي ،علي حسني ، الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (مصر، ١٣٨٩ / ١٩٦٩)ص١٠٧

المصادر والمراجع العربية

القران الكريم

اولا: المصادر العربية

١. ابن عساكر،أبو القاسم علي بن الحسن (ت،: ٥٧١هـ/١١٧٥م) تاريخ دمشق ، تحقيق، عمرو بن غرامة العمروي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع عام النشر(بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م)

٢. ابن القيم الجوزية ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين،(ت، ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) احكام اهل الذمة ، تحقيق يوسف بن احمد البكري ،وشاكر العروي ، (السعودية ،١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)

٣. ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية ، المحقق: علي شيري ، الناشر: دار إحياء التراث العربي الطبعة: الأولى(بيروت، ١٤٠٨، هـ /١٩٨٨ م)

٤. المسعودي ، أبو الحسن على بن الحسين بن على(ت،٣٤٦هـ /٩٥٧م) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: أسعد داغر الناشر، دار الهجرة (قم١٤٠٩هـ)

٥. ياقوت ، الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت، ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان، دار صادر، الطبعة: الثانية،(بيروت، ١٩٩٥ م)

ثانيا: المراجع العربية

١. أرنولد، توماس ، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، : مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ، ١٩٨٠)،
٢. أبانيز ،بلاسكوا أبانيز ،ظلال الكنيسة، نقلا منقذ بن محمود السقار، التعايش مع غير المسلمين في المجتمع المسلم ،الناشر: رابطة العالم الإسلامي – مكة المكرمة ،الطبعة: الأولى، (مكة المكرمة ،١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م)
٣. ا. س. تريتون ، أهل الذمة في الإسلام ، ترجمة و تعليق حسن حبشي. دار الفكر العربي ،(القاهرة , ١٩٤٩)
٤. اسحق موسى الحسيني ، الهدف الديني للاستشراف ،من دراسة التراث الإسلامي، بحث منشور في مجلة الفكر الإسلامي ،العدد الأول، تموز،٢٠١٢.
٥. إيف ترنون، كتاب ماردين، وترجمة الأستاذ يوسف باريش نقلته إلى العربية لطيفة عرنوق،(باريس ، ١٩١٥) .
٦. تولستوي، ليف نيكولايافيتش ،حِكَم النبي محمد، دراسة وتقديم: د. محمود النجيري، مكتبة النافذة ط١ (الجيزة ، ٢٠٠٨م) .
٧. ريتشارد سوذرن . صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى. ترجمة وتقديم رضوان السيد.(بيروت: ١٩٨٤) .
٨. الخربوطلي ،علي حسني ، الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (مصر، ١٣٨٩ / ١٩٦٩) .
٩. دوزي راينهارت بيتر آن ،ملوك الطوائف و،نظرات في تاريخ الاسلام ،ترجمه:كامل كيلاني (مصر ، ١٩٣٣) .
١٠. السباعي : مصطفي ، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، (دار الوراق للنشر والتوزيع – المكتب الإسلامي ، د.ط ، د.ت) .
١١. سليمان يوسف يوسف، مسيحيو المشرق والغزو الاسلامي، (بيروت ، ١٩٨٧) .
١٢. صموئيل أتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية، ،ترجمة جمال احمد الرفاعي ،رشا عبد الله الشامي ، عالم المعرفة ، العدد ،١٩٧،(الكويت ، ١٩٩٥) .
١٣. فرانشسكو جابرييلي، الإسلام في عالم البحر المتوسط، ضمن "تراث الإسلام"، بإشراف: جوزيف شاخت، وكليفورد بوزوروث، ترجمة: د. محمد زهير السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة ١١ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت، ، ١٩٨٧م).
١٤. فيليب حتى، تاريخ العرب ،ترجمة إدوارد جرجي، جبرائيل جبور (بيروت ١٩٦٥.) .
١٥. كارين أرمسترونغ، تاريخ الأسطورة ، ترجمة وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم، (بيروت، ٢٠٠٨) .
١٦. كارين أرمسترونج، القدس: مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، (القاهرة، ١٩٩٨م) .
١٧. ل.أ. سيديو ، تاريخ العرب العام ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، (القاهرة ، ١٩٤٨م) .
١٨. لوبون: غوستاف ، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة،(بيروت ١٩٧٩) .
١٩. متز، آدم ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة دار النشر: دار الكتاب العربي ،ط٥(بيروت، بلا) .
٢٠. مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام، ترجمة: د. عفيف دمشقية، دار الآداب، ط١ (بيروت: ١٩٨٠م) .
٢١. هـ ج ويلز. موجز تاريخ العالم، ترجمة، تحقيق: عبد العزيز توفيق جاويد,مكتبة الكندل العربية ، (مصر، ١٩٥٢) .
٢٢. هونكه، زيجريد الله ليس كذلك، ترجمة د. غريب محمد غريب، دار الشروق، ط٢ (القاهرة ، ١٩٩٦) .
٢٣. ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: مجموعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ٢٠٠١م) .